تعليقات على مقال

المغول في مصر وقوانينهم

للاستاذ أحمد بك رمزي

الأســـتاذ الدكتور محمد صالح بك من أساطين أساتذة القانون في مصر كتب مقالا عن قوانين المغول في مصر نشرته جريدة الأهرام في عددها الصادر في ٢٧ — ٧ — ١٩٥٠ وقد تضمن آراء ناضجة رأيت أن أعلق عليها بما يأتي مع تقديري لعلم الأستاذ ومكانته .

— ١ —

جاء في هـذا المقال « اشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب جماعة من هؤلاء المغول سماهم البحرية ومنهم من ملك ديار مصر وأولهم المعز أيبك »

والمعروف أن المعز ايبك تركماني والظفر قطز خوارزمي وكانا من أشد أعداء المغول جنساء أما البحرية فأصلهم من أتراك روسيا التي كان يسكن الجزء الجنوبي منها قبائل القفجق وسلالتهم القوزاق وسكان روسيا وجزء من رومانيا وإليهم ينتسب الظاهر بيبرس وقلاوون وخلاصة أمراء الدولة التركية بمصر[1] وقد سببت غارة أبناء جينجيز خان على جنوبي أوروبا تشتيت وهجرة هذه العناصر التركية وكان مجيء هؤلاء لمصر عن طريق البحر من موانئ « بحر أزوف » (بحر الازق) فسمو بالبحرية لذلك ولو أن المقريزي يقول أن التسمية نسبة لجزيرة الروضة حين كانت قلاع الملك الصالح .

ويحاول بعض الكتاب المعاصرين الزج بالمغول في حياة مصر الاسلامية رغبة في الاقلال من شأنها والحط من كرامتها . والحقيقة أن العناصر التركية خدمت مصر والاسلام أجل الخدم واعترف المؤرخون المعاصرون بذلك وكان ابتداء اتصال الأتراك بمصر من أيام المأمون والمعتصم والمتوكل ثم استقل بها آل طولون ثم آل الأخشيد وهما دولتان قامتا على شجاعة وكفاية رجلين عظيمين وكلاهما من وسط آسيا التركية .

ولما دخل المعز لدين الله الفاطمي مصر تأثر بما سمعه في المشرق عن شهرة الأتراك في الحروب وله كلمة مع قائده جوهر (راجع الخطط صفحة ١٠٧ جزء ٢) ولما ظهر العزيز بالله على

١ — راجع صبح الأعشى جزء ٤ صفحة ٤٥٦ القبجاق جنس من الترك أهل حل وترحال ... ومنهم معظم جيش الديار المصرية . راجع ابن بطوطة حينما ذكر المسجد الذي أنشأه الناصر محمد في شبه جزيرة القرم ص ٢٤٥ طبعة ١٣٢٢ جزء أول

أتصرونني على الهوى أو دعوني يرتمي بي القضاء كيف يشاء
أزعمتم بأنكم فصحاء أنا منكم وإن زعمتم براء

ثم أنظر إلى هذا الوصف الرائع للحبيبة :

ملؤها الكبر والدلال وفيها أسهم ينتمي اليها المضاء

***

أي ذنب ذنب الدخيل فؤادي وعيوني جميعها الغرباء
ملكته مرعى خصيباً هنيئاً يرتع الريم فيه كيف يشاء
قد تضر الفتى جوارحه السمع والقلب بعضها ايذاء
كم جليل هوى لنظرة عين وذكي أبلى قواه الذكاء
إن في بعض ما نحب لهلكا والذي خلته رجاء عنـــاء

وأجمل ما في قصيد الشاعر همزياته وهو فيها أطول ما يكون نفساً . ولعل في « الألف والهمزة » سراً يتصل بالطبيعة البشرية، فالنطق بهما — أقرب إلى تنفس الصعداء من هم وداء

ويتفق للشاعر وللكاتب أن يكون وزن معين وقافية بذاتها أدنى إلى ذوقه الموسيقي؛ وقد يحبب اليه اسم بذاته؛ فلعل أروع شعر المتنبي في ميميآته ودالياته وشوقي بك في همزياته ونونياته ، وأكثر الأسماء حظوة عند أناتول فرانس (تيريز) ، فهي اسم لقيمة داره ؛ وعلم لصاحبة الدور الأول في روايته الغرامية الوحيدة « الزنبقة الحمراء ».

« للحديث بقية »

محمد محمود جلال

هفتكين التركي اصطنعه سنة ٣٨٠ وضم بعد ذلك منجوتكين ونشأت فرق من الأتراك في الجيش الفاطمي .

أما المغول الذين خدموا مصر فمعروفون في التاريخ من سلاطين وأمراء وقواد وأهمهم السلطان كتبغا الذي حارب في معركة شقحب مع الناصر محمد ضد بني قومه وجيء به للحرب محمولا على محفة وكل من أسلم من المغول حسن اسلامه وهم الذين نشروا الإسلام في ربوع الروسيا « جامع السلوك صفحة ٧١٦ » وصلت (لمصر) رسل تدان منجو بن طوغان بن باطو بن دوشي بن جنجيز خان ملك القبجاق بكتاب بالخط المغولي يتضمن أنه اسلم ويريد أن ينعت نعتا من نعوت الاسلام[1]

— ٢ —

وجاء ذكر قوانين المغول وأهمها السياسة في كتب المؤرخين المسلمين كما يأتي : المعروف عن جنجيز خان أنه صاحب « التورا » و « اليسق » ويقول صاحب النجوم وهو تركي « إن التورا باللغة التركية المذهب واليسق هو الترتيب : والأصل في الياسة أو السياسة ان سي بالعجمي ثلاثة وبسا بالتركي الترتيب وعلى هذا مشت التتار من يومه إلى يومنا هذا وانتشر ذلك في سائر الممالك حتى ممالك مصر والشام وصاروا يقولون سي بسا فثقلت عليهم فقالوا سياسة على تحاريف أولاد العرب في اللغات الأعجمية » .

والغريب ان هذه الكلمة شائعة بالريف في مصر فقد سمعت من يقول « احكم بالعدل يافلان أنت شرع وسياسة » أي انه يحل معضلات الأمور بالشريعة والسياسة وهو لا يعلم منشأ الكلمة في الأصل .

انني لا أشك لحظة في أن الماهل المغولي صاحب التورا واليسق وهما قانون المغول ولكن هل هذه القواعد استعملها الترك قديما في بواديهم ؟ وأن الذي جمعها جنجيز خان والزمهم بصفته الخان الأعظم بأتباعها ؟ يحتاج الأمر إلى دراسة وتدقيق قبل اصدار حكم قاطع .

أما كلمة « سي ياسة » فيخيل لي أنها استعملت قبل مجيء المغول للمشرق سنة ٦١٨ هجرية

ولقد كنت معنيا ببحث هذه النقطة بالذات وذلك عقب اطلاعي على نص غامض في كتاب الروضتين جزء أول صفحة ١٨٧ عن حوادث ٦٦٥ هجرية وظهور جنجيز خان كان حوالي ١٦٨ بآسيا الاسلامية فيكون بينهما نصف قرن وأكثر وهذا هو النص :

« لما بلغ نور الدين وفاة أخيه قطب الدين وملك ولده سيف الدين بعده واستبداد عبد المسيح بالأمور وكان يبغضه لما يبلغه من خشونته والمبالغة في اقامة السياسة ... »

وأني اعتقد بأن النص ان صح كما ورد يحتمل أن السياسة كان معمولا بها قبل مجيء المغول غير أن المبالغة والافراط في تنفيذ أحكامها كان مكروها لدى نور الدين الذي غلبت على طبعه التعاليم الاسلامية فأصبح ليناً رقيقاً .

ان الأتابكة وهم من أتباع السلاجقة لا بد أنهم نقلوا عوائد الترك وأنظمتهم في أواسط آسيا . وهذه العوائد خاصة بأنظمة الجيوش والاقطاعات ولا تمس الدين والمعاملات بشيء وقد جاء في صبح الأعشى جزء ٤ ص ٥ « واعلم ان الدولة الأيوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية وخلفتها في الديار المصرية خالفتها في كثير من ترتيب المملكة وغيرت غالب معالمها وجرت على ما كانت عليه الدولة الأتابكية »

ويظهر مما كتبه ياقوت عن بلاد الترك أنهم كانوا أهل مدنية وأنظمة فهو يصف العمران في خوارزم وقرمانة واشروسنة وما يطلق عليه الآن تركستان الصينية وتركستان الروسية وهو يقرر ويكتب ما رآه بنفسه ويقول ان خراب هذا العمران جاء بعد ان تملك خوارزم شاه البلاد وقضى باجلاء السكان سنة ٦٠٠ وان اخلاء البلاد سهل على المغول القضاء على خوارزم شاه في سنة ٦١٧ فتخرب الباقي . فليس بمستبعد أن تكون لهم قواعد لضبط النظام بين الجيوش وأخذ الجنود بالشدة والا فما معنى قول ياقوت « وهم أعظم الناس طاعة لكبرائهم والطفهم خدمة لعظمائهم »

ويقول صاحب النجوم الزاهرة ص ٢٨٨ جزء ٦

---

١ — راجع رحلة ابن بطوطة حيث يتبين منها انتشار الاسلام في تلك النواحي عند بداية المائة الثامنة الهجرية : وإقامة المساجد والزوايا والأربطة وكثرة الفقهاء والعباد في أنحاء روسيا الحالية

« ولما تسلطن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري أحب أن يسلك في ملكه بالديار المصرية طريقة جنجيز خان هذا وأموره ففعل ما أمكنه — واستمر أولاد جنجيزخان في ممالكه التي قسمها عليهم في حياته وعلى طريقته في «التورا» «واليسق» إلى يومنا هذا » وعليه بان دخول النظم المغولية كان على يدأقوى خصوم المغول .

— ٣ —

وقد أطلعت في السنوات الأخيرة على بعض الأبحاث التي نشرت حديثا — والتي يحاول أصحابها لأسباب غير معروفة ولا مفهومة الحط من قيمه الخدمات التي أدتها مصر الاسلامية للعالم وخصوصاً الاقلال من شأن دولتي المماليك في مصر والشـــام وانتقاص قدر السلاطين العظام والطعن في شخصيتهم من ذلك قولهم عن دولتي المماليك ان السـلاطين أوقفوا العمل بالشريعة الاسلامية بايجاد نظام تحجوبية الحجاب فتعدى الحاجب حدوده وأخذ يحكم في المواريث متخطياً ولاية القاضي الشرعي . وهذا غير صحيح إذ أن سلاطين مصر ضربوا مثلا رائعا في احـترام رجال القضاء الاسلامي ونزلوا على أحكامهم حتى فيم يخص صميم عمل الدولة وهي صفحة رائعة . أما نظام الجند وترتيب أمور الاقطاع وتدريب المستجدين من المماليك وجنود الحلقة فيحتاج لـكثير من الشدة والعدالة وتوقيع العقوبات الرادعة وهذا ماأخذ به هؤلاء الملوك والقادة منذ قيام دولة آل سلجوق ووجدنا بيبرس يأخذ بنظام جنـكيز خان ويطبق الشدة والعدالة لينتصر بنظـام جنـكيز خان ضد أولاده وأحفاده من المغول . وهكذا سـارت الأمور إلى نهاية الدولة المملوكية .

والغريب أن النزاع بين الحجوبية والقضاء الشرعي لم يسمع به في الوقت الذي كانت أنظمة الظـاهر بيبرس معمولا بها بل ظهر حين تراخت الأحكام وتعذر تنفيذ العدالة وحصـل التساهل في أخذ الجند والمماليك بالشدة اللازمة لهم وهو نزاع لايفهم من قيامه أن الحجوبية أتت للقضاء على شرائع الاسلام

— ٤ —

ويفهم من مقال الدكتور محمد صالح بك أن نظام الحجوبية انشيء لجماعات المغول التي أتت لمصر واختلطت بأهلها مع أن الحجوبية نظام قائم للجند أساسه فض المشاكل الناشئة عن توزيع الاقطاع لأن الاقطاع ليس ملـكا للامير يتصرف به تصرف المالك فلا يورث عنه وانما هو منحة ليقوم الأمير بالجهاد في سبيل الله فعليه أن يستعد بجنده وسلاحه ومماليـكه لهذا الواجب فإذا مات صاحب الاقطاع لزم السلطان أن يقوم بالمحافظة على حقوق الجند والمماليك الذين قام في الاصل الاقطاع على أسلحتهم ودمائهم فبقدر ما تطبق العدالة في تصريف هذه الشئون بقدر ما تـكون جيوش المسلمين على أهبة للجهاد . وبقدر ما يسود الظلم وتعم الفوضى بقدر ما يفقد الجيش روح المقاتلة والـكفاح . فالشدة توجد النظام والعدالة توجد القوة المقاتلة التي تبذل الدماء فلم يحدث في تلك الأيام وبعد ادخال هذه الأنظمة ان زالت مصر أمام الصليبيين أو ولى جنودها الأدبار في معركة قائمة أمام المغول أوغيرهم وانما كان تاريخ مصر حلقة مستمرة من الانتصارات المجيدة ولذلك دهشت من مقال الاستاذ الذي يضع عهدا اسلامياً عظيما ويحشره بين عهود اروبان والبطالمة والأغارقة ثم يقحم بالعرب وسط هـذه الشعوب الظالمة واننا نؤمن بأن العروبة ومصر صنوان لا يفترقان فالعناصر التركية والمغولية ذابت في بوتقـــة المصرية لأن مصر اسلامية عربية كما ذابت العناصر العربية في بوتقة الأتراك لأن تركيا اسلامية فلا محل اذن لوضع العرب وامراء الاسلام وملوكه مع غيرهم .

— ٥ —

جاء في المقال اسم بيرا وصحته «البيرة» بكسر الباء وسكون الياء وهي قلعة في البر الشرقي من الفرات وموقعها في تركيا واسمها الآن (بيرة جك) وجاء في التعريف «ولها منعة وعسكر» وكانت داخل أقاليم حلب في الدولة المصرية ولها حاكم وجند من مصر أما الحدود فكانت شمال ملاطية عند قلعة دريدة وقد جاء في صبح الأعشى أن نيابة البيرة تقدمة الف وتوليتها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف .

— ٦ —

تركت هذه الأنظمة الاقطاعيه الفاظا معينة في مصر منها كلمة عزبة ولا اختلاف على معناها وكلمة الوسية التي اختلف المفسرون على معناها جاء في السلوك « وفيها انتقل سعر الغول